

الفرد الإيجابي في نظر الطهطاوي



في كتابه (المرشد الأمين للبنات والبنين) يشن الطهطاوي هجوماً كاسحاً على الفرد المتميز بأناية مفرطة. وفي فصل بعنوان (محو محبة النفس من الأطفال في حال صغرهم، وإزالتها عن الكبار في حال كبرهم) يئبه إلى هذا النوع من الأفراد الذين لا يبنون وطناً ولا يقيمون المجتمع الفاضل. فقد عرف رفاة كم أن الاهتمام بالذات ومحبة النفس دون أي شعور بأحاسيس الآخرين ومصلحه، وكم أن اهتمامهم بذواتهم ومحبتهم لأنفسهم دون أن يقيموا وزناً لمصالح المجتمع واهتماماته ... كم أن ذلك خطير ومخلٌ بوحدة المجتمع الإنساني (فحب النفس خصلة جامعة لجميع العيوب والذنوب، مخلّة بالجنس البشري). وأن يتعبد المرء لنفسه بحيث تصبح هذه النفس (محبوبته وبغيته) فذلك من الصفات البغيضة التي عليه التخلص منها لأنّها لن تكون مبعثاً لسعادة ولا سبباً لفرح نفسي (... وكيف ينال السعادة مَن خصّ نفسه بالمحبة، ولم يجعل لأخيه منها قدر حبة؟).

لقد لاحظ الطهطاوي إبان وجوده في باريس أن ثمة خللاً يعيشه المجتمع الفرنسي ويتمثل في الفردانية المطلقة. فالفرد هناك أصبح في حالة من الانسلاخ التام عن المجتمع وشجونه. وقد ينتج عن ذلك تفكك البنية المتماسكة للمجتمع الفرنسي على الرغم من تمدنه وتحضره. ولهذا السبب فإن رفاة تناول هذه المسألة بمزيد من العقلانية. فهو يرى إلى ذلك التلازم الذي ينبغي أن يكون بين الفرد والجماعة حيث

على حين أن الثاني، وهو فرد بطال أي بدون عمل ينجزه، ليس بوسعهم أن يسهم في صنع المدنية أو الحضارة. فالجمعية التأسيسية (وهي تسمية يطلقها رفاة على المجتمع الإنساني) لا يستطيع أن ترقى وتزدهر بأفراد سلبيين (متبطلين) وإنما بأفراد إيجابيين (عاملين). ومن هنا إصرار الطهطاوي في أكثر من مكان في كتاباته على خلق المجتمع العامل، الديناميكي، ومن هنا أيضاً إصراره على رفض مبدأ الزهد والاعتزال عن المجتمع والناس. وينبع إصرار الطهطاوي من معانيته اليومية لما يجري داخل المجتمع المصري.

فهذا المجتمع يزخر بجموع من المتبطلين، الزاهدين، القانعين بكفاف العيش يأتيهم هبةً من هنا وهناك. ولعل ما أثار حمية الطهطاوي، بل وأثار حفيظته، أن هذه الجموع من البشر المتعطلين كانت تدعي الإيمان ومحبة الله وقد انخرطت في بعض مسالك من التصوف تخالف الإسلام، شكلاً ومضموناً. وقد استهوت هذه المسالك الصوفية، البعيدة من التصوف الحق، وأسطاً شعبية عريضة مولعة بكل غريب، وبكل عادة غير مألوفة. وكان من أثر ذلك، وبتشجيع من الولاة العثمانيين أحياناً، ظهور أعداد كبيرة من الزهاد ومدعي التصوف الذين كانوا يرددون مصطلحات الصوفية (دون فهم ولا فقه ولا علم ولا دين).

ويتفق المؤرخون لهذه الحقبة من تاريخ مصر، وللحقبة التي سبقتها، أن هذه المجموع التي تمارس التبطل وتدعي الزهد والتصوف والاعتزال عن الناس، كانت تمارس الكثير من الموبقات والعادات السيئة وعلى رأسها تعاطي الحشيش، وقد كان ذلك عادة مألوفة وغير مستهجنة بين هؤلاء.

ويروي لنا المتصوف المصري الشهير عبدالغني النابلسي حادثة مضحكة عن أحد هؤلاء وهو ممن يتعاطون التصوف والحشيش على السواء، وذلك في كتابه (الحقيقة والمجاز في الرحلة إلى الشام ومصر والحجاز). فهو يخبرنا أنّه قام، يرافقه زميل آخر له هو زين العابدين البكري، بزيارة إلى بولاق. وفي مسجدها الذي يدعى مسجد السنانية شهد صلاة الجمعة مع رفيقه البكري. وقام أحد الخطباء يؤم المصلين. لكن هذا الخطيب كان يتمايل يمنةً ويسرةً ويكثر من اللحن مما حمل زين العابدين البكري على الإكثار من الابتسام. فشر الخطيب المذكور بأن زين العابدين، وكذلك النابلسي، مغتبطان أشد الغتباط بكلامه ومنطقه السليم، ولكنهما في حقيقة الأمر كانا يسخران منه خاصة وأن ملامح التخدير بدت واضحة على وجهه وفي حركات يديه، وأيضاً في تمايله كالسكران. وبعد حين توقف الخطيب وتوجه نحو زين العابدين يدعوه إلى اعتلاء المنبر للخطابة لأن هذا التكريم لا يستحقه هو وحده. لكن الحاضرين منعه من التماهي مع زين العابدين وأفهموه حقيقة حاله، وأن الشيخ زين العابدين كان يبتسم استنكاراً لكثرة لحنه وانعدام منطقته. فما كان من هذا الخطيب إلا أن اعتذر لأنّه كان غائباً عن الوعي بسبب تناوله مقداراً كبيراً من حشيشة الكيف، وضجت قاعة المسجد بكلمات السخرية والضحك. وظل الوضع على هذه الحال إلى أن تطوع بعض المصلين وطرده من المسجد.

وحول هذه الحادثة يعلق المفكر المصري توفيق الطويل، فيقول: (ولو كان تعاطي الحشيش اتهاماً يشين صاحبه لالتمس هذا الإمام عذراً للحنه غير هذا العذر).

إذن فقد كثر الأفراد العاطلون عن أي عمل، وزادت أعداد المشعوذين ومدعي الولاية الصوفية (وكان تأثيرهم على الناس عجيباً نتيجة لسوء الأحوال السياسية والاقتصادية والأمنية في العصر العثماني، فتشبت الناس بأية بارقة من النور والقوة لتنقذهم مما هم فيه من الفزع والخوف، وكانت تلك البارقة هي... طرق التصوف).

لعل ما تقدم يمحصنا صورة جلية عن البيئة التي وجد رفاة الطهطاوي أن لا شيء ينقذها من تخلفها غير العمل والبذل والكد والعطاء. فالمرء يُنظر إليه بقدر أفعاله وبقدر ما يعطيه لمجتمعه من عمل يعود بالمنفعة عليه وعلى الآخرين، ف(لميست الفضائل إعداماً بل هي أفعال وأعمال تطهر عند مشاركة الناس ومساكنتهم وفي المعاملات وضروب الاجتماعات). إذن (الأفعال والأعمال) وحدها تحدد قيمة الإنسان ومكانته. فهذه الأفعال والأعمال تخلق فرداً إيجابياً يكذب من أجل خيره وخير الآخرين.

أما ما يقال عن (فضيلة الزهد) فلا يتعدى كونه نوعاً من الهراء يجب أن يتوقف، لأزّه لا شيء كالزهد واعتزال المجتمعات والعيش بعيداً من قضايا الناس ومشاكلهم، ما يهدر طاقة الإنسان ويبدها. فالبديل من الزهد هو الانخراط في المجتمع بحيث يصبح مصير الفرد من مصيره، يكبر في كبره ويصغر في صغره. والبديل من الاعتزال في المغاور والصوامع هو أن يخوض المرء معركة الحياة بكل ما أوتي من جهد وتعب وتصميم، لأنّ المطلوب منه أن يقيم حضارة لا أن يهدم حضارة. فالعمل بناء ومراكمة على حين أنّ التبطل (ويسميه رفاة إعداماً) هدم وتبديد.

وعلى هذا فهو يقف ضد الرأي القائل بأنّ (الفضيلة في الزهد وترك مخالطة الناس بملازمة المغارات في الجبال، وبناء الصوامع في المفازات، والسياحة في البلدان للدروشة).

فهذا السلوك يهدر طاقات الإنسان ويبدها بلا ثمن، والذين يمارسون مثل هذا السلوك (لا يحصل لهم شيء من الفصال الإنسانية المدنية - العفة، النجدة، السخاء، العدالة - بل تصير قواهم وملكاتهم التي ركبت فيهم بالنسبة للخيرات المدنية والمنافع العمومية عاطلة، لأزّها لا تتوجه إلى خير أو إلى شر بالنسبة إلى العموم).

المصدر: رفاة رافع الطهطاوي